

الفلسفة البنائية

وموقعها من المنهج العلمي

بقلم لوسيان سيفت
ترجمت أحمد القصير

الأقل سلف لها ، ومن ناحية أخرى ترفضها باعتبارها « فرعا ميتا »
في شجرة انساب البنائية .

وفي النهاية، فان البنائية لم تتمتع الا برواج قصير الامد : بدأ
بمناقشة ليفي - شتراوس الحادة ضد سارتر في كتابه « العكس
الهمجي » (١٩٦٢) ، وبلغ ذروته عام ١٩٦٦ بكتاب فوكوه « الكلمات
والاشياء » وكتاب لكان « كتابات » ، (اما اعمال التوسير وزملائه
حول « ماركس » و « رأس المال » فقد ظهرت في نهاية عام ١٩٦٥) ،
وكان ذلك قد حدث لمجرد ان تكتسحه احداث مايو - يونيو ١٩٦٨ .

ومن البديهي ان نسأل عن سبب احتلال البنائية مكان الصدارة
بمثل هذه السرعة في منتصف الستينات ، خاصة انه عندما بدأت
افكارها تجذب اهتمام النواثر العلمية فان احدا لم يتوقع، فيما يبدو،
ان هذه الافكار تستطيع ان تحدث ما يقال انه « ثورة » في المعرفة .
والواقع ، ان الابحاث الرئيسية التي تعتبر اساس البنائية المعاصرة
انما ترجع الى الثلاثينات ، بل ويرجع معظمها الى ما قبل الحرب
العالمية الاولى . ففي مجال اللغويات يمكن الاشارة الى اعمال سوسير ،
وفيما بعد الى اعمال تروينسكوف وجاكوبسون واعمال حلقة براغ ،
وفي مجال علم النفس الى اعمال منظري (الجشطلت) التي ساهمت
الى حد كبير ، في فترة ما بين الحربين ، في ظهور آراء البنائيين ،
كما يمكن الاشارة ايضا ، من وجهة معينة ، الى اعمال فرويد ، وفي
الميدان الفلسفي يمكن الاشارة الى هوسرل واعمال باشلارد اللاحقة
حول القضايا الفلسفية للعلم .

كل هذا يجعل من الضروري تماما ان يحلل الماركسيون اسباب
انتشار البنائية ، خاصة انه في السنوات القليلة الماضية ، وبعد
هدوء وحيز الامد ، كانت ثمة دلائل عديدة على عودة انبعاث افكار
البنائية في اشكال جديدة ، ويرتبط هذا ، الى حد ما ، بنشأة
فروع جديدة للمعرفة .

تحولات في الايديولوجية :

لماذا جاء انبعاث البنائية في منتصف الستينات على وجه
التحديد ؟ اننا نعتقد ان احد الاسباب الاساسية ، ان لم يكن السبب
الرئيسي ، انه حتى عام ١٩٦٠ احتلت مكان الصدارة في الحياة
الايديولوجية انساق فلسفية تقليدية تفسر العالم بطريقة تأملية .
فقد سادت الفلسفة الجامعية الروحية والديكارتية ، بما يتسمان من
ولع بالذاتية ، باعتبارها شكلا مجردا للوعي البرجوازي ، ما يزيد
عن مائة وخمسين عاما . ولا يرجع ذلك الى صلاحيتها العلمية ، وانما

شهدت السنوات القليلة الماضية في فرنسا اهتماما متزايدا بالاعمال
والمجادلات النظرية حول الفلسفة البنائية المعاصرة وصل ذروته فيما
بين ١٩٦٥ - ١٩٦٧ ، وان كانت دراسات ليفي - شتراوس
الانثروبولوجية والتصورات اللغوية المرتبطة بها ، ونظريات ج. لكان
المحلل النفسي ، ونظريات فوكوه المؤرخ للعلوم الانسانية ، واعمال
باحثين آخرين يتردد بينهم اسم التوسير الفيلسوف الشيوعي ، قد
نشرت خلال الستينات على نطاق واسع ونالت اهتماما بالغا ومناقشة
جسادة .

وليس الاهتمام الشديد بمدرسة فلسفية واحدة بالامر غير
المألوف في تاريخ فرنسا الحديث : فقد كانت الموضة هي البرجسونية
فيما بين ١٩٠٠ - ١٩٢٢ ، والشعبية الهائلة لوجودية سارتر فيما بين
١٩٤٥ - ١٩٦٠ ، غير انه حتى الدراسة السريعة سوف تكشف ان
البنائية ، بالمقارنة مع هذه المدارس الفلسفية ، لها سمات معينة
جديدة تعبر عن تغيرات عميقة في حياة البلاد الايديولوجية .

ولا تهتم البنائية بان تعلن « فلسفة جديدة » قدر اهتمامها
ان تظهر عجز المفاهيم الفلسفية القائمة وذلك في ضوء المعرفة
المتجمعة من طريق علوم الانسان . ولا تتمتع البنائية على « فيلسوف
عظيم » واحد ، أي « قدرة واحدة تسيطر على عقول الناس » ، وانما
تتمتع على حشد من المفكرين يبشرون بافكار جديدة . ولا يمكن ان
نتناول البنائية على انها مدرسة فلسفية واحدة متسقة . ذلك انها
تتعدد اكثر الاشكال تبانيا ، بعضها يدرس موضوعات مجتزئة ، والآخر
يتناول موضوعات تصل الى حد التناقض . كما ان موقفها مسن
الماركسية غير متسق : تعتبر ان الماركسية شديدة الصلة بها ، او على

(١) تمت ترجمة هذه الدراسة نقلا عن النص الانجليزي المنشور
بالعدد رقم ٦ (يونيو) عام ١٩٧١ من مجلة :

Peace, Freedom and Socialism

. كما نشر النص الاصلي باللغة بالفرنسية في العدد

رقم ٧ (يوليو) ١٩٧١ بمجلة :

La nouvelle Revue internationale

وينبغي التنويه بان الدراسة قد نشرت بالمجلتين تحت عنوان :
Structuralism فحسب، ولكن بعد ان قمت بترجمتها الى
العربية حاولت ان اضمها تحت عنوان مستمد من مضمون الدراسة،
فربما كان نشرها لقراء العربية تحت عنوانها الاصلي ، اي « البنائية »
فقط غير كاف للتعبير عن مضمون محتوى الدراسة ، خاصة ان
البنائية لم ينشر عنها شيء يذكر باللغة العربية . - المترجم

اعمال التوسير . والواقع ان اعلان نهاية الفلسفة ، باسم علوم الانساق - الفلسفة التي يقصد بها الانساق المثالية القديمة - والنقد الجذري للايديولوجية الذاتية الاتجاه في مجموعها ، استنادا الى تحليل الظروف الموضوعية لكل « حقيقته انسانية » كان دائما وفسى جوهر الامر مبادئ ماركسية (لم يستطع المراجعون وحدهم ، مثل جارودي ، ان يستوعبوها) .

هكذا وفي منتصف الستينات بدأ عديد من المثقفين يعتبرون ان البنائية شكل خاص جديد من ماركسية اصيلة تلقي التأييد في ظل التوجيه المهيب لاساتذة الجامعة البارزين والحاضرين بها . وفي هذا المناخ الفكري الخاص اقتنع عديد من المثقفين التقدميين بشيء يتعارض كلية مع الماركسية على انه تطور جديد لها . والى جانب ذلك ، فان هذا « التطور الجديد » ، أي البنائية ، يعزى ان يصبح الايديولوجية السائدة في الوقت الذي يعلن فيه نهاية كل الايديولوجيات . ونتيجة لندور الاحتكار في بث ونشر الافكار مضت البنائية تنطلق بثبات لتصبح اشهر موضة ايديولوجية عرفتها فرنسا .

هل البنائية منهج ماركسي ؟
ان ليفي شتراوس يصف منهج البنائية كما يلي :

ينبغي على المرء اولا ، ان يجمع الحقائق المسفوفة ويحللها ثم يربطها في قائمة شاملة ، وثانيا ، ان يمين الروابط المتبادلة بين الحقائق ، ويصنفها في مجموعات ، ويحدد ارتباطاتها الداخلية ، وثالثا ، ان يركب الاجزاء في كيان واحد ، أي يضع العناصر المعنية في نسق واحد ، وبهذا ينتج موضوع للبحث منفرد متكامل (انظر : ليفي - شتراوس ، طوطمية العصر الراهن ، باريس ١٩٦٥ صفحة ١٨ - ٢٢) .

ذلك هو المحور الاساسي للمنهج الذي اطلق اسمه على الفلسفة في مجموعها : البنية كنظام تحكمه قوانين عامة .

ان مفهوم البنية يشير ، في اوسع معانيه ، الى نظام مسن علاقات داخلية ثابتة يحدد السمات الجوهرية لاي كيان ، ويتشكل منه كل متكامل لا يمكن اختزاله الى مجرد حاصل مجموع عناصره .

وبكلمات أخرى ، يشير الى نظام يحكم هذه العناصر فيما يتعلق بكيفية وجودها وايضا قوانين تطورها . وهذا المفهوم عين البنية ليس جديدا بالنسبة للماركسية . وفي واقع الامر ، ان الاختلاف الجذري بين البنائية والماركسية لا يعلن عن نفسه عند هذا المستوى الاولي ، اي في مفهوم البنية . بل على العكس ، فان مدارس فكرية معاصرة قد استعارت هذا المفهوم من الهجلية بل ومن الجدل الماركسي . ومن الاوفق تماما ان نقول ان مفهوم البنية استخدمه لأول مرة مؤسسو المنهج الجدلي في منتصف القرن التاسع عشر ارتباطا بذلك النسق الخاص بالوجود الانساني ، أي المجتمع ، وليس ارتباطا باللفظة او منطقة اللاوعي او نسق القرابة مثلما حدث ، لأول مرة ، عند نهاية القرن .

ومنذ زمن يعود الى عام ١٨٥٩ كتب ماركس في مقدمة « نقد الاقتصاد السياسي » قائلا :

« يدخل الناس خلال قيامهم بعملية الانتاج الاجتماعي في علاقات محددة لا يمكن الاستغناء عنها ومستقلة عن ارادتهم . وعلاقات الانتاج هذه تتطابق مع المرحلة المحددة لتطور قواهم الانتاجية المادية . ويشكل المجموع الكلي لعلاقات الانتاج هذه البنية الاقتصادية للمجتمع وهي الاساس الحقيقي الذي تقوم عليه البنية الفوقية القانونية والسياسية التي تتطابق معها اشكال محددة من الوعي الاجتماعي » .

وفي المخطوطات الاقتصادية لانعام ١٨٥٧ - ١٨٥٩ « وسسع ماركس من مفهوم المجتمع باعتباره وحدة عضوية » قائلا :

« ان كل علاقة اقتصادية في أي نظام برجوازي تماما تعني ضمنا وجود علاقة أخرى ، علاقة برجوازية اقتصادية الشكل ، فكل علاقة - التتمة على الصفحة ٧٣ -

يعود الى اللغو العلمي الذي غلفهما بقضايا موضوعية وقدمهما الى الفارئ في شكل اكثر او اقل عقلانية . وقد استطاعت الفلسفة الذاتية بذلك ان تبقي كثيرا من المثقفين ، ولفترة طويلة ، في جهل بانجازات العلوم المختلفة والتي كانت كثيرا ما تقف على ارض غير راسخة . ان برجسون ، على سبيل المثال ، فرض افكاره ذات الصبغة الذاتية على النفس الفسيولوجي والبيولوجيا ليجعلهما يخدمان الروحية التطورية . كما ان سارتر يفعل نفس الشيء ، وان كان ذلك يحدث بالطبع في ظروف مفاخرة . فهو يستخدم المعلومات الخاصة بالمدرسة السلوكية في علم النفس (كتاب : موجز لنظرية ظاهريات العواطف) او الخاصة بالتحليل النفسي (كتاب : بودليو) او حتى الخاصة بالمادية التاريخية (كتاب : نقد العقل الجدلي) ، وبعد ان يفرغها من مضمونها يقدمها على انها مظاهر « الاختيار الحر للفرد » ، والذي يعتبره العامل الاساسي . وان كانت نمى اختلافات وتناقضات معينة بين هذه الاتجاهات الفلسفية الذاتية ، الا انها قد تعهدت هي واتجاهات أخرى مشابهة بنفس الوظيفة المحددة للايديولوجية البرجوازية ، ونفي بذلك ، ان تؤخر ، ولأطول فترة ممكنة ، الثورة الكوبرنيكية الاخيرة ، اي تلك الثورة التي لا مفر من ان تنذر بنهاية كل الفلسفة المثالية .

انه لامر طبيعي ان تسود افكار البنائية في المجال الايديولوجي في وقت لم تعد فيه الفلسفة الذاتية ، التي هي بمثابة البحث الاخير لفلسفة الماضي المثالية العظيمة قادرة ، ولأول مرة منذ بزوغ الفلسفة البرجوازية ، على ان تحافظ على مكانتها . وهذا يؤكد بشكل حاسم رأي انجلز بان انهيار كل الانساق الفلسفية التاملية امر لا مفر منه - وليس من قبيل المصادفة ان افكار ليفي - شتراوس بدأت تجذب الانتباه بمجرد ان فشل سارتر في محاولته اليايسة - في كتاب « نقد العقل الجدلي » - لانقاذ العقولة المثالية الذاتية الخاصة بالولوية الوعي الفردي . وقد فشل سارتر رغم قبوله - اظهارا للموضوعية - المادية التاريخية (ومنذ ذلك الحين سعى سارتر الى ان يستر فضله النظري بان ينحاز الى جماعات يسارية برجوازية صغيرة غير مرتبطة باحزاب) . وفي الفصل الختامي من كتاب « الفكر الهيجي » جاء « الناقد الثالث » لاعلان انبعاث البنائية متمثلا في رفض ليفي - شتراوس ، باسم علوم الانساق ، للايديولوجية الذاتية ، خاصة شكلها الاخير المعروف ، أي وجودية سارتر .

لقد حدث هذا حينما اخذت نتائج السيطرة الاحتكارية المباشرة لجهاز الدولة تتزايد بوضوح في كل مجالات الحياة الاجتماعية . فقد أدى نمو رأسمالية الدولة الاحتكارية الى انهيار سريع للمراتب الوسطى التقليدية والمجموعات البرجوازية القديمة ومؤسساتها السياسية وايديولوجيتها « الكلاسيكية » التي ظلت تمثلها في فرنسا الفلسفة الاجتماعية ، بالدرجة الاولى ، لفترة طويلة . كما اخذت تتزايد في الوضوح الطبيعية الطوباوية « للطريق الثالث » - منتصف الطريق بين الاحتكارات والطبقة العاملة - في حل « قضايا فرنسا » . فان افلاس الفلسفة التاملية بشكل عام ونموذج فلسفة « الطريق الثالث » المتمثل في وجودية سارتر بوجه خاص قد أصبح يتزايد في الوضوح . وهذا يفسر ايضا الاهتمام المتزايد الملحوظ بالماركسية ، والتي ساهم انتشارها في توفير الظروف الفكرية الملائمة لمعارك مايو - يونيو ١٩٦٨ الطبقة الكبيرة .

ان البنائيين قد استشهدوا ان يعرضوا افكارهم على انها عناصر فلسفة جديدة تمت صياغتها كبديل للوجودية والفلسفات الذاتية الاخرى . وذلك هو محور كل مؤلفاتهم الشهيرة وان كان معظمها معاديا للفلسفة في اتجاهه الاساسي . كما ساعد البنائية ايضا مطالبها تعميم نتائج البحث في مختلف المجالات العلمية خاصة في مجال الانتولوجيا ، واللغويات ، وعلم النفس ، وفي البداية تم النظر الى البنائية كحركة متحدة الاتجاه مع الماركسية . وهذا ما تشير اليه ، فيما يبدو ،

الفلسفة البنائية

تابع المنشور على الصفحة - ١٣

البحث . هكذا فحسب يمكن اظهار الحركة الحقيقية بشكل صائب .
ووفقا لهذه الخطة تم بالفعل تصور كتاب « رأس المال » . فالجزء
الاول يحلل الظواهر التي تشكل عملية الانتاج الرأسمالي ، والجزء
الثاني تم تخصيصه لعملية التوزيع التي تكمل عملية الانتاج ، وفي
الجزء الثالث اصبح ممكنا « وصف الاشكال العينية التي نشأت عن
حركة رأس المال في مجموعها » ، (كارل ماركس ، رأس المال -
موسكو ١٩٦٢ الجزء الثالث صفحة ٢٥) .

ولو ان كتاب « رأس المال » قد تم استكماله لكان قد انتهى ،
حسبما اشار ماركس في مناسبات عديدة ، بتحليل للصراع الطبقي ،
اي تحليل الحركة الاجتماعية التي تزول التناقضات الكامنة في أسلوب
الانتاج الرأسمالي . وبكلمات أخرى ، لقد تدرج بحث ماركس مسن
« التشریح الدقيق » للاشكال الاقتصادية الاولية الى المعالجة « عبر -
الزمنية » فالى العملية التاريخية في مجموعها .

يتضح من هذا انه قبل ان يستخدم منهج البنائية في مجال
اللغويات ، والانتولوجيا ، وعلم النفس ، بامد طويل كانت قيمته
العملية قد تم اظهارها في تحليل ماركس لظواهر المجتمع البرجوازي
الاقتصادية .

الاختلاف الجوهرى مع الماركسية :

ان كل ما تقدم يمكن ان يخلق انطباعات بانه ليس ثمة خلاف
جوهرى بين المنهج البنائي الجدلي . ويوحى بهذا ايضا قول ليفي -
شترانس انه قد استعار مفهومه الاساسى عن البنية من « ماركس
وانجلز واخرين » ، بل ويستتبرد قائلا :

« اننى اريد ان اعيد توحيد كل انجازات الانتولوجيا خلال
الخمسين عاما الماضية في الاتجاه الماركسي » (الانتروبولوجيا البنائية ،
باريس ١٩٥٨ صفحة ٣٦٤) .

وفي كتابه « المدارات الحزينة » ، نجد بين ملاحظاته عس
سيرته الذاتية العبارات البالغة الدلالة الآتية :

« لقد هزني ماركس . فمن خلال عقله الجبار اطلمت على الاتجاه
الفلسفى منتقلا من كانت الى هيغل : ان عالما باسره قد فتح امامى .
ومنذ ذلك الحين لم يفارقتني هذا الاحساس ، ونادرا ما احاول معالجة
اي قضية من قضايا علم الاجتماع او الانتولوجيا دون ان انعش افكارى
اولا بقراءة بضع صفحات من كتاب « الثامن عشر من برومير » ، لويس
بونابرت » ، او كتاب « نقد الاقتصاد السياسى » .
(المدارات الحزينة ، باريس ، صفحة ٤٤) .

اننا امام وضع قد يصعبان نفهمه : لماذا اذن لا يعتبر البنائيون
انفسهم ماركسيين ؟ ولماذا يصرّون على تسمية المنهج الذى يزعمون
انهم استعاروه من ماركس المنهج البنائي وليس الجدلي ؟ ان هذا
السؤال يذكرنا باخر ، ففي الايام التي اعلن فيها سارتر اتفاقه الكامل
مع الفلسفة الماركسية ، طرح سؤاله عن سبب التزامه بالوجودية .
وحسبما هو واضح من تطور سارتر النظري والسياسى فان الاجابة
هى : لا يمكن للمزء ان يشر بالوجودية دون ان يرفض في نفس
الوقت الجوهر الحقيقى للماركسية ، والبنائية ينطبق عليها نفس
الامر رغم كل اختلافاتها عن الوجودية ، فان رفضها ان تكون متطابقة
مع المادة الجدلية ليس مجرد قضية اصطلاحات او التمسك بمكانة
نظرية ، وانما هو تعبير عن اختلاف جوهرى مع الماركسية ، وهذا
ما يتضح في القضايا الاساسية التالية :

(١) ان منهج البحث عند البنائيين لا يؤكد اسبقية المعالجة
« الآتية » على المعالجة « عبر - الزمنية » في بساطة وحسب ، وانما
يفصل بين الجوهر الحقيقى لهذين المدخلين الى درجة تعوق وحدتهما
الداخلية تماما . ولا تمضي البنائية بالطبع ، الى حد ان تستعرض

مشروطة باخرى مثلما هو الحال في كل نسق عضوي . ان مثل هذا
النسق العضوي ، باعتباره كيانا متكاملا ، يمتلك ضروراته الخاصة
به كما ان تطوره في اتجاه الوحدة المتكاملة يكن في اخضاعه كل عناصر
المجتمع او في خلق ما يفتقر اليه من اعضاء . هكذا ، ففي مجرى
التطور التاريخى ينصهر النسق في كلية واحدة » .

ان هذا ولا شك اكثر التعريفات شمولاً لمفهوم البنية ، ولا تكاد
البنائية المعاصرة تضيف أي شيء جوهرى اكثر من محاولات الصياغة
الرياضية لهذا المفهوم .

ليس ثمة احتمال ان التباين بين البنائية الماركسية يبدأ عند
تعريف قواعد تطبيق مفهوم البنية ؟ ان البنائية تطعي الاسبقية
المنهجية للمعالجة الآتية Synchronic ثم تاتى بعدها المعالجة
« عبر الزمنية » Diachronic . وكما سوف نرى ، فان الفهم
الصائب لهذا المبدأ يبين عدم وجود اختلاف جوهرى بين الماركسية
حول هذه القضية . فما الذى يشير اليه حقا ، هذا المبدأ في اكثر
معانيه تحديدا ؟ ان التطبيق الصائب وحده لمبادئ البحث المنهجية
يستلزم ان نفرق بشكل واضح بين دراسة بنية معينة من زاوية
حالتها وادائها الوظيفى في وقت معين ، اي « المعالجة الآتية » وبين
دراسة طريقة تغير هذه البنية عبر الزمن ، اي المعالجة « عبر -
الزمنية » . وبكلمات أخرى ، لا ينبغي ان نخلط بين الحالة التسي
عليها البنية وبين عملية تغير مظهرها . يضاف الى ذلك ، انه اذا
كان التاريخ هو ، حقا ، تاريخا لابنية وليس تاريخا لعناصر منفردة ،
فانه ينبغي على المرء ، وفقا لهذا المبدأ ، ان يعرف اولاً الحالة التسي
عليها هذه الابنية ليصبح قادرا بعد ذلك على ان يكشف تاريخها .
ان هذا التفسير يبين ان مبدأ البنائية الاساسى لا يتناقض مع التفكير
الماركسي ، بل ويمكننا ان نشير ثانية الى ماركس الذى طبق منهجا
مماثلا في تحليل الظواهر الاقتصادية للرأسمالية .

لقد كان هدف ماركس ان يبين حتمية ان ينهض ، وبطريقة ثورية
مجتمع اكثر تطورا ذو نمط اشتراكي بدلا من المجتمع الرأسمالي ولم
يستبدل ماركس على ضرورة ذلك التغير بمذاهب تجريدية عن التطور ،
وانما عن طريق تحليل عميق لكل من الابنية الداخلية للاقتصاد
الرأسمالي والاداء الوظيفى المستقر ظاهريا لهذا الاقتصاد . وهكذا ،
انطلق ماركس من الابنية الى التاريخ .

وحيثما تحدث ماركس عن منهجه في تحليل الراتب الاقتصادية
كان يؤكد :

« سوف يكون من المستحيل والخطا ان نتناول الراتب الاقتصادية
بنفس النظام الذى لعبت به دورا حاسما في التاريخ . بل على
العكس من ذلك ، فان النظام تحدده العلاقة القائمة في أي مجتمع
برجوازي معاصر . كما ان هذا النظام ، يتناقض بكل معنى الكلمة ،
مع ذلك الذى يبدو انه الترتيب الطبيعى او انه متطابق مع سياق
التطور التاريخى . ان الامر لا يتعلق بالاضاع التي شغلناها العلاقات
الاقتصادية تاريخيا في مختلف التكوينات الاجتماعية المتعاقبة ، وليس
هو ايضا مشكلة تتابعها في الفكرة (برودون) التي تحرف مفهوم
العملية التاريخية . وانما تتمثل المشكلة في تدرج هذه الراتب داخل
المجتمع البرجوازي الحديث .

ولا شك ، ان هدف الاقتصاديات هو ان تكشف عن قوانين
تطور التكوينات الاجتماعية - الاقتصادية ، غير انه لا يمكن انجاز
ذلك الا بعد تبين العلاقة الداخلية بين الواجه المختلفة للكيان موضع

الخاصة بالسلمة البسيطة الى القاعدة العامة لرأس المال ، اي الى الدورة في شكل : نقود - سلمة - نقود . وان فهم تناقضاتها - يساعدنا على فهم ميكانيزم عملية خلق فائض القيمة وعملية الصراع الطبقي .

ان منهج ماركس لا يتجاهل ميكانيزم الظواهر ، وانما يركز على كشف جدلية العمليات التي وراء ثباتها النسبي . ولقد كان ذلك هو المنهج الجدلي العلمي الذي مكن ماركس من ان يثبت ان :

« المجتمع الراهن ليس بلورة صلبة وانما نظام قابل للتغير بسبل ودائم التغير » . (رأس المال ، المجلد ١ صفحة ١٠) .

وفي هذا الصدد ينبغي ان نعتبر المنهج البنائي معاديا للجدل .

(٢) لماذا لا ترى البنائية التناقضات الجدلية ، أي حلقة الوصل بين التاريخ والبنية ؟ والاجابة هي ان البنائية تنكر الجوهر الاساسي للتطور الاجتماعي ، أي جدلية جوهر المجتمع الانساني ، ونعني بذلك ، جدلية الانتاج الاجتماعي للقيم المادية . وهذا هو بيت القصيد : ان جدل ماركس العلمي لا ينفصل عن ماديته ، ذلك ان جدلية كل أوجه الوجود الاجتماعي والوعي الانساني متصلة في النشاط المادي ، ومن ثم فان المميزات الجزئية للبنائية لا يمكن ان تكون ذات فعالية جادة مهما بلغت قيمتها طالما انها تنكر الاساس الذي يعين كل الظواهر الاجتماعية .

وليس ثمة صلاحية ايضا في زعم البنائية انها منهج شامل لمعرفة كل الظواهر والعمليات . فان نقطة انطلاقها هي ان اللغاتوالابنية اللغوية بمثابة مطلقات يفترض انها تحدد كل العوامل الاجتماعية الأخرى . ان ليفي - شتراوس مثلا يقول :

« ان اللغة هي اساسا ظاهرة ثقافية (تميز الانسان عن الحيوان) (الانثروبولوجيا البنائية ، صفحة ٣٩٢) .

وهذا يعني ان اللغويات بمثابة النظام الموجه لكل العلوم الانسانية مجتمعة . وتلك هي البديهية الاساسية للبنائية . ويبدو ان البنائيين لا يريدون ان تكون افكارهم متسقة : فبينما يطالبون بتحليل العناصر وروابطها داخل اي نسق ، نجدهم يعزلون عاملا واحدا ، اي عنصرا واحدا ، ثم يعلنون ان له الاهمية الحاسمة .

ان ديكارت استطاع في عصره ان يعتبر ان اللغة بمثابة الشيء الوحيد الذي يميز الانسان عن الحيوان . وفي عصرنا الراهن ثمة برهان علمي على وجود نسق للعوامل السببية تشكل اللغوية احد عناصره الى جانب عناصر اخرى مختلفة تتساوى معها في الاهمية ، عناصر اخرى مثل تشكيل الأدوات التي تسهم ، في تحليل الأخير ، في نشأة اللغة في ارتباط وثيق بتطور الوعي الانساني .

ان البنائيين انما يخطئون عندما يعتقدون ان اللغويات بمثابة « النظام الموجه » . وقد اوضح ج. مونييه ، عالم اللغويات الماركسي ، وبشكل صائب ، ان نقل مناهج ومفاهيم أي علم الى علم آخر نقلآليا دون بحث متمق لاختلافاتها الحقيقية او المضمون النوعي لكل علم ، انما يؤدي الى احلال الاستمارة محل البحث العلمي . بل ويصل البنائيون الى حد الادعاء بان تجمع أي قدر معين من مفهومات ومصطلحات تتعلق بأي مجموعة منعزلة من الحقائق خاصة بالظروف الانسانية انما تقدم « حلا » « لاسرار » المعرفة .

الموضوعات بشكل استاتيكي بحث او الى حد ان ترفض المعالجة « عبر الزمنية » . غير ان ما يسمى « النظرية البنائية حول المعالجة عبر الزمنية » انما ترفض في واقع الامر الحلول الملائمة للقضايا التاريخية .

فبينما توافق البنائية على ان الابنية تتطور عبر الزمن نجدتها لا تعالج ذلك باعتبارها عملية تاريخية مسقطه في المستقبل ، وانما على العكس من ذلك ، تتناوله على انه حركة نحو الاكتمال ومن ثم نحو الغموض . وعلى هذا النحو يكتب أ. ج جريماس ، عالم اللغويات ، قائلا :

« ان التاريخ ليس نقطة انطلاق مثلما يقال دائما ، وانما على العكس ، هو اكتمال ، انه « اشبه ما يكون بالفرملة وليس المحرك » . ومن ثم يرى « ان ثمة قسما كبيرا من الحقيقة في القول الشعبي المأثور : مهما يتغير يظل كما هو نفس الشيء » . (الأزمنة الحديثة ، نوفمبر ١٩٦٦ صفحة ٨٢٣) .

ان هذا القول يتجاهل ما هو جوهرى : التاريخ كعملية تتطور مستمر وغير محدود للمجتمع الانساني ، أي التاريخ مثلما هو حقا . وأيضا سلمت البنائية بالتغيرات في الابنية نجدتها تعتبر ان التغيرات مجرد « انفجار في البنية » ناتج عن تصادمها مع الظروف الخارجية . وهذا يعني انكار القوانين الداخلية للتطور التاريخي . هكذا ، يترك التاريخ تلقا ، أي ينظر اليه وكأنه مجرد تتابع تصادفي لحقب وفترات غير مترابطة . وفي « الكلمات والاشياء » نجد م . فوكوه يعتبر ان الحقب في تطور المعرفة اقرب ان تكون منظارا نرى من خلاله التغير من ان تكون عملية مستمرة من التطور التقدمي للمعرفة . وعلى عكس الفهم الجدلي للتاريخ والابنية في وحدتها العميقة فتؤكد البنائية - التي تنكر هذه الوحدة - الثبات النسبي للابنية . وهذا يضعها في حلقة مفرقة ، بمعنى انها تتأرجح بين الابنية بدون تاريخ حقيقي وبين التاريخ بدون ابنية حقيقية .

(٢) ان الماركسية تقدم فهما منطقيًا عميقًا لوحدة الابنية والتاريخ ، وتكشف عن القوة المحركة لكل العمليات ، أي ، التناقض الجدلي . فمن زاوية وحدة الاضداد يتضمن هذا الفهم كلا من الثبات النسبي للابنية والقانون الذي يحكم تتابع مراحل التطور التاريخي . غير ان التناقض الجدلي يعني ، في نفس الوقت ، صراع الاضداد ، ومن هنا يكشف عن الدينامية الداخلية للبنية والتغيرات الكيفية التي تعدد تاريخها الواقعي .

ان التناقض الجدلي غريب على البنائية . وتلك سمة رئيسية تميز منهجها . فهي تقر فقط بالتتام المتجاور المشترك للحقائق والظواهر والابنية ، أي الشكل الخارجي او الصورة الشاحبة للتناقض الجدلي . ان البنائية تهتم ، كقاعدة عامة ، بالتتام المتجاور لعناصر أي نسق او اخر مثل نسق القرابة او نسق التصورات . وتلك ليست خاصية التناقضات الجدلية ، ذلك ان الاداء الوظيفي لعناصر أي نسق يرتبط بميكانيزم الظاهرة اكثر من ارتباطه بالديالكتيك .

ان الهدف الاساسي لاي تحليل علمي هو ان يبين ان الثبات الظاهري لهذه الميكانيزمات يحجب العمليات المتناقضة التي تنشأ عنها الميكانيزمات ذاتها والتي تحولها في مجرى التطور الاساسي الى ميكانيزمات جديدة . والماركسية لا ترفض تحليل الميكانيزمات العينية للتطور الاجتماعي ، ودليل ذلك تحليل ماركس ، في كتاب رأس المال لتحويل ميكانيزم الدورة على شكل : سلمة - نقود - سلمة ، أي القاعدة

والواقع ان المنهج الخاص بالبحث في أسس واصول المعرفة (المنهج الإستمولوجي) انما هو منهج شكلي بحث وقيم . كما ان انكار البنائية للمادية التاريخية يصل بها الى ان التاريخ لفر غير قابل للتفسير ، ويفصها في طريق الانثروبولوجيا المثالية المسدود ، ويدمفها بتمسفية اجراءات منهج البحث في اسس المعرفة .
للدراصة بقية

تعليق بقلم المترجم :

مع تزايد التطورات التكنولوجية الحديثة ، او ما يطلق عليه « الثورة العلمية والتكنولوجية » ، تظهر اشكال جديدة للصراع الدائم بين الانظمة والقوى الاجتماعية المختلفة ، وتنعكس هذه الاشكال في اتجاهات فكرية يدعو بعضها الى القول بان العلوم الانسانية غير قادرة على مواجهة تحديات العصر . وانطلاقا من ذلك تزعم انه ينبغي احداثا ما يشبه الثورة في اساليب ومفاهيم ومناهج العلوم الاجتماعية لكي تواكب ما حدث من تطورات تكنولوجية . وبدلا من تاصيـسل الاجازات العلمية الحقيقية في مجال العلوم الاجتماعية ونظرياتهما ومناهجها العلمية ثم الانطلاق من ذلك الى محاولة تفهم الآثار الاجتماعية لما يسمى « بالثورة العلمية والتكنولوجية » ، نقول انه بدلا من ذلك ، نجد ان اتجاهات فكرية معينة - وان كانت متقاربة الاهداف - تحاول ان تتغافل عن تلك الاجازات وعن التاريخ الحقيقي للعلم ، وتدعي ان تلك الاجازات قد عفى عليها الزمن ، ومن ثم ينبغي ايجاد مناهج جديدة لتطوير العلوم الاجتماعية . والهدف من ذلك هو ، بالطبع ، محاولة التأثير في اتجاهات هذه العلوم ومواقفها تجاه القضايا الرئيسية المتعلقة بالانسان والمجتمع وتطوره ، وما يدور فيه من صراعات ، وافاق مستقبلية . وما ذلك ، في واقع الامر ، الا انعكاس للصراع الاجتماعي وامتداده الى مجال الحياة الفكرية والعلمية .
على ان اهم الحركات الفكرية التي برزت في الاعوام الاخيرة تمثلت فيما يسمى « بالفلسفة البنائية » . وقد انطلقت هذه الحركة من فرنسا اساسا . وهي تحاول ان تقدم منهجا لتحليل مجالات مختلفة مثل :

الرياضيات ، علم النفس ، البيولوجيا ، اللغويات ، علم الاجتماع ، الانثروبولوجيا ، والفلسفة .
وهذه الدراصة التي نقلناها الى اللغة العربية تناقش ما تقدمه البنائية من افكار ، وتحدد موقعها من اتجاهات فكرية اخرى معاصرة وعلاقة المنهج الذي تستخدمه بالمنهج الجدلي خاصة . ومن المفيد

ان تؤكد الملاحظات التالية :

(١) تشير الدراصة الى ابرز ممثلي المدرسة البنائية . غير انه ينبغي ان نشير الى ان جان بياجيه ، صاحب الاجازات العلمية الهامة في مجال علم النفس الطفل ، له هو الآخر اسهامات نظريسة في افكار البنائية ومنهجها .

(٢) ان الدراصة توضح ان البنائية لا يمكن اعتبارها موحدة الفكر . وفي هذا الصدد نقول ان اعمال بياجيه النظرية خاصة كتابه « البنائية » تؤكد ذلك هي الاخرى . ففي هذا الكتاب يناقش وينتقد بعض افكار ممثلي الفلسفة البنائية الاخرين مثل : ليفي شتراوس . وفي الفصل السابع من هذا الكتاب يعلق على الجدل الذي نشأ بين ليفي - شتراوس وسارتر قائلا : ان كلا منهما قد تغافل مثسلا عن مفهوم « وحدة الاضداد » الذي يرى - من وجهة نظره - ان البنائية تؤكد مثسلا يؤكد المنهج الجدلي تماما .

(٣) ان البنائيين والعديد من المثقفين يضعون اعمال التوسير ، الفيلسوف الشيوعي ، ضمن نطاق الفلسفة البنائية ، كما ان جان بياجيه يصف اعمال التوسير قائلا : انها نوع من تجديد للماركسية بتطعيمها بالمنهج الخاص بالبحث في اسس المعرفة (المنهج الإستمولوجي) ، وان التوسير يفصل الماركسية عن المهيجلة ليعيد صياغة الماركسية وفق اصطلاحات البنائية المعاصرة .

لكن التوسير يعترض بنفسه على من يفسرون اعماله على هذا النحو ، ويحدد موقع اعماله من الايديولوجيات المختلفة ، فهو يقول في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه الشهير « قراءة لرأس المال » ان السبب في اعتبار ان تفسيراته تنتمي الى الفلسفة البنائية هو استخدام اصطلاحات البنائيين ، ثم يؤكد ضرورة ادراك ان المحتوى الداخلي لمقولاته ومضمونها ليس بينها وبين الايديولوجية البنائية اي شبي مشترك .

(٤) ان كاتب هذه الدراصة هو « لوسيان سيف » المشرف على سلسلة « المنشورات الاجتماعية » الفرنسية . وربما كانت شهرة « جارودي » ، واهتمامنا باعماله في العالم العربي هي التي جعلتنا لا نلتفت جيدا الى بعض الاعمال الهامة التي يقدمها مفكرون آخرون ، وربما كان من اهم الامثلة التي يمكن تقديمها في هذا الصدد « التوسير » الفكر الفرنسي الذي جذبت اعماله اهتمام الدوائر العلمية في السنوات الاخيرة .

أحمد القصير

القاهرة

من منشورات دار الآداب

شخصيات من أدب المقاومة

تأليف سامي خشبة

« ليست هذه محاولة في النقد الادبي التطبيقي ، وليست محاولة لدراسة شخصيات لاباطل تاريخيين او مغلوبين على حساب الاعمال الادبية انها محاولة لاكتشاف ما يمكن ان يصنمه الادب بعقلية الشعب الذي يكتب عنه الادب ويكتب له . ان عقلية مصر وروحها في مواجهة كل محاولات فزوها وطمس معالمها القومية والانسانية هي ما يهمني في هذه الدراسات . . ومع هذا فان البطولة ايضا نصيبا من اهتمام هذه الدراسات ، ولكنها بطولة العقل - مهزوما او منتصرا - في مواجهة محاولات تعجيد في اطار ثقافات الغزاة ، او في توابيت ثقافته المحلية التي اجبرت على التوقف عن مواكبة الحياة المتطورة . . ومن هنا ، فان كل ادب ننتجه يهدف الى تأكيد قيم الحرية العقلية والاجتماعية والسياسية والى اعادة الكشف عن حقيقتنا القومية من زاويتها الانسانية هو ادب للمقاومة »
من مقدمة المؤلف

صدر حديثا

٢٥ ق.ل.